مجلة أبعاد/ مختبر الأبعاد القيمية للتحوّلات الفكرية والسياسية بالجزائر
جامعة وهران2 – المجلد 05 / العدد 02 ديسمبر 2019
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

مفهوم المسجد في القرآن الكريم -دراسة سياقية

The Concept of the Mosque in the Holy Quran

-Contextual study-

عدنان مهنديس*[1]

[1].كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس جامعة سيدي محمد بن عبد الله – فاس– المغرب

****

تاريخ الإرسال: 2019/11/11 | تاريخ القبول: 2019/11/25 | تاريخ النشر: 2019/12/31

الملخص:

يحتل المسجد موقعا هاما في منظومة المفاهيم القرآنية، وذلك من خلال ذكره في مجموعة من الآيات داخل سياقات متنوعة، ومن خلال وروده كذلك في قوالب دلالية أخرى، ولا شك أن مقاربة هذه السياقات المرتبطة بالمسجد يجلي ما أحاط بها الشرع هذه المؤسسة بما يحظ كينونتها؛ ويسهل عملها الوظيفي؛ ويسهم في تحقيق مقصيدية وجودها في المجتمع، ويمكن إجمال أهم السياقات التي سعى المقال إلى مقاربتها في ما يلي: السياق التكويني، السياق التنزيهي، السياق المنزلي، السياق الأمني، السياق الشعائري والسياق التوجهي، حيث إن هذه السياقات تتكامل وترتبط مع بعضها البعض، وذلك بما يجعل هذه المعلمة جديرة بإطلاق وصف المؤسسة عليها.

الكلمات المفتاحية: مسجد-مفهوم-دراسة-سياق.

Abstract:

The mosque occupies an important position in the system of Quranic concepts, by mentioning it in a group of verses within a variety of contexts, and through the receipt as well as in other indicative templates, and there is no doubt that the approach of these contexts associated with the mosque illustrates what was surrounded by the institution, so as to preserve its entity The most important contexts that the article sought to approach can be summarized in the following: formative context, recreational context, domestic context,

* الباحث المرسل: mhndysdnan@gmail.com

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

security context, ritual context and directional context, as these contexts are complementary and related With each other, and that what makes it worthy to be called an organization .
Keywords: mosque-concept-study-context.

مقدمة:

لعل ما استقر عندي هنا من خلال حصيلة المادة العلمية المتعلقة بالموضوع هو تقسيم السياقات القرآنية وفق القضايا الكبرى البارزة للمسجد في القرآن الكريم، دون الاهتمام ببنية اللفظ، لأن هذا العمل سبق وأن أنجزته في العمل التأصيلي ضمن رسالة الماستر[1]، حيث اشتغلت على مفهوم المسجد في القرآن الكريم من خلال البحث في حقله الدلالي والذي حصرته في الحقل المكون من المفاهيم الآتية: البيت أو بيت الله – المحراب – المصلى –المقام–الصفّ، وتركّز العمل الذي قمت به حول رصد الأبعاد والدلالات التفاعلية لهذا الحقل من أجل التأسيس للبعد التواصلي للمؤسسة المسجدية.

وأهم السياقات القرآنية التي ارتأيت تخصيصها بالإبراز في هذا البحث هي كالآتي: السياق التكويني، السياق التنزيهي، السياق المنزلي، السياق الأمني، السياق الشعائري والسياق التوجهي، وقد كانت الإشكالية البؤرة التي أطرت هذا العمل هي: كيف ننطلق من السياقات القرآنية المتعلقة بمفهوم المسجد لبناء منظومة دلالية تؤطر العمل الوظيفي لهذه المؤسسة ممن خلال آيات القرآن الكريم.

ولمقاربة هذه الإشكالية؛ اتخذت من المنهج الوصفي عمدة لتفكيك وربط أهم العناصر المعرفية المؤطرة لموضوعها، مع إعمال أدوات الاستقراء والحصر والتمثيل في أجرأة هذا المنهج من حيث التعامل مع الآيات والألفاظ، وكذا ما يرتبط بها من مجالات وظيفية، وما يتعلق بالتفاسير والإشارات الدلالية المدعمة لعناصر الموضوع.

1. السياق التكويني:

وهو الذي يتعلق أساسا بفكرة وجود المسجد من أصله، ويضم هذا السياق الموضوعي مجموع الآيات القرآنية التي تتمحور حول بناء المسجد وتأسيسه والسعي في

[1] في إشارة إلى الرسالة التي تقدت بها لنيل شهادة الماستر في التواصل الديني وحوار الحضارات؛ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة (المغرب) تحت إشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم عقيلي، وقد نوقشت بعنوان: البعد التواصلي للمسجد-دراسة تحليلية وبنائية-، وقد أجازها لجنة المناقشة بتقدير: حسن جدا.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

خدمته والحفاظ عليه، وهي آيات يُوحّدها مقصد الحفاظ على الدين الذي يدخل ضمن الكليات الخمس التي جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيقها.

يشمل إذا هذا السياق مجموع الآيات التي تتحدث حول موضوع بناء المسجد عموما وبناء مساجد مخصوصة، كالمسجد الحرام ورفع قواعده والإشارة إلى قدم عهده وتزاحم الناس في التردد على أرجائه، بالإضافة إلى للآيات التي تتوعد المخربين للمساجد، وسبب الضمّ الذي انتهجته في هذا السياق بين المفاهيم الثلاثة هو وجود علاقة تكامل وتلازم بينها، وتأسيس أول مسجد في الإسلام، والإشارة إلى آيات لها ارتباط غير مباشر بخدمة المسجد والقيام على مصالحه.

قال تعالى: "**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**" (سورة البقرة، الآية 113)، وخراب المساجد قد يكون حقيقيا كتخريب بختنصر والرومان لبيت المقدس، حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه، وقد يكون الخراب مجازا بمنع المشركين للمسلمين، حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه عن المسجد الحرام[1]، ويعتبر المسجد الحرام أقدم أماكن العبادة لله سبحانه وتعالى، وقد ارتبط بناء هذا المسجد لأوّل مرّة باسم النبي إبراهيم عليه السلام، حيث ورد ذكره في القرآن الكريم بأنّه أول مسجد في حياة البشرية[2]، لقوله تعالى: "**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**"(سورة آل عمران، الآيتان 97/96).

ومن خلال ملاحظة مواضيع أول آيات قرآنية تتحدث عن المسجد، ندرك أنها تكاد تتفق حول موضوع البناء والتأسيس ورفع القواعد والخدمة من أجله كما هو الشأن في آيات سورتي البقرة وآل عمران، وهو أمر منطقي مناسب، لأننا قبل أن نتكلم عن الوظيفة المسجدية وأثرها، نتساءل أولا عن وجود المؤسسة المسجدية على أرض الواقع، فكأن هناك إشارة خفية إلى أهمية هذا السياق، وضرورة وجود مؤسسة مسجدية

[1] المساجد في المدن العربية: المعهد العربي للإنماء، ص33، وزارة الإعلام، 1410هـ/ 1990م.

[2] عمارة المساجد-دراسة في تاريخ عمارة المساجد خلال العهود الإسلامية-: رؤوف الأنصاري، ص17، دار النبوغ، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/ 1996م.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

بقواعد وأسس متينة لتنهض بأعباء هذه الأمّة، أضيف لذلك آيات مدعمة من هاتين السورتين قوله تعالى: "**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**"(سورة البقرة، الآية 124)، حيث يستفاد من ورود لفظي (مقام – طهرّا) أنّ اتخاذ المكان مسجدا وخدمته بالتطهير أمر أساسي في إقامة هذا الدين وحمل رسالته، ويقول تعالى في السورة نفسها مبينا شكل البناء وخدمة البيت عملا وجهدا: "**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**" (سورة البقرة، الآية 126)، فإسماعيل معطوف على ابراهيم و تأخر ذكره، يوحي أن دوره في رفع القواعد دور ثانوي، أما الدور الأساسي فقد قام به ابراهيم "**قيل كان ابراهيم يبني واسماعيل يناوله الحجارة**"، فلننظر إلى دور الترتيب في تكون المعنى[1]، يقول البدوي في هذا الصدد: "و الجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي فتصوره بألفاظها، لتلقيه في النفس حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى، ظاهرا فيه المهم و الأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، و إلا اختل و انهار"[2].

وإذا أردنا أن نجمل مجموع السياقات الجزئية للحديث عن المسجد الحرام بالخصوص؛ فإننا نحصل على السياقات الآتية:

- سياق البناء ورفع القواعد
- سياق الإسراء منه
- سياق الإقامة
- سياق الإلحاد فيه
- سياق تحريم دخول المشرك إليه
- سياق تحريم الظلم
- سياق الأمن
- سياق الطواف والحج إليه
- سياق العبادة
- سياق العهد عنده
- سياق الكفر به
- سياق تطهيره والحفاظ على حرمته
- سياق دخول المؤمنين إليه
- سياق السكينة

[1] من بلاغة القرآن: أحمد البدوي (1384هـ)، ج1 /ص85 (بتصرف)، نهضة مصر، القاهرة، 2005م.
[2] من بلاغة القرآن: ص:85.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

- سياق الصد عنه - سياق القبلة[1]

ويتبين من خلال تأمل مواضيع هذه السياقات ودلالاتها العامّة أنها تنحو نحو اتجاهات: **مجتمعية، تعبدية، سلوكية، تمييزية أو فصلية وحفاظية**، وتتكامل هذه الاتجاهات وتنسجم داخل كتلة وحدة نسقية تشكل الهوية الحضارية لهذا المسجد التفاعلي، الذي هو نواة سائر المساجد الأخرى.

أما أوصاف المسجد الحرام في الآيات الأُوَل من القرآن الكريم فهي أوصاف تدل على حكمة الله تعالى، وذلك لكونها تضم أبعادا متنوعة في منتهى الدقة حيث نجد:

- **البعد النفسي:** وذلك من خلال وصفه بالهدى، وأنه هدى للعالمين، وبالتالي فهو يضمن لمن يتواجد فيه العصمة والإبعاد من الضلال وسبل الشيطان، فالمتواجد داخل أحضانه يشعر الراحة النفسية من خلال استحضار هذا المعنى، قال تعالى: "**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**" (سورة آل عمران، الآية 96).

- **البعد الروحي التعبدي:** وذلك من خلال وصفه بالمقام أو مقام إبراهيم وهو موضع القدمين، أي أن التواجد فيه يتضمن من معاني الاقتفاء والسير على خطى الحنيفية السمحة التي وضع أسسها أبو الأنبياء وتركها سنّة ليسير الناس على هديها.

- **البعد السياسي:** في إشارة إلى مركز التحكم والقوة التي وهبه الله تعالى، من خلال تأمل أحد المعنيين اللذين وردا في تأويل معنى بكّة، بأنها تبك وتدّك أعناق الظلمة والجبابرة[2]، ولذلك فهي المركز الوحيد الذي تعرض عبر التاريخ لمحاولات عديدة من أجل القضاء عليه وطمس معالمه، إلا أن الله تعالى كتب له الحفظ والصمود أمام الأمواج العاتية لمحاربة الإسلام وقبلته.

- **البعد الاجتماعي الحضاري العالمي** فهو بيت مبارك بركة معنوية حيث هو مكان لأكبر تجمع للمسلمين من شتى أنحاء العالم [3]يأتونه فيزدحمون عنده وهذا هو المعنى الثاني لبكة وهو **الازدحام**، ويأتي في هذا المعنى قوله تعالى كذلك في سورة الحج: "**وَأَذِّنْ**

[1] مؤسسة المسجد -الرسالة الحضارية والوظيفة الاجتماعية-: د عبد العالي المعكول، ص42/ ص49 بتصرف كبير، مطبعة أمّيمة، فاس، المغرب، ط1، 1433هـ/ 2012م.

[2] تاريخ الكعبة المعظمة -عمارتها وكسوتها وسدانتها-: حسين باسلامة، ص48، مكتبة الملك فهد، الرياض، السعودية، ط2، 1419هـ/ 1999م.

[3] المساجد في المدن العربية: المعهد العربي للإنماء، ص48/ 49 بتصرف، وزارة الإعلام، 1410هـ/ 1990م.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ" (الآيتان 27/26)، فخلال هذا الموسم المشهود العظيم يتسنى لأعداد كبيرة من الناس من شتى ربوع العالم أن تلتقي رغم اختلاف لغاتهم ومشاربهم، يوحدهم دين واحد لكنهم ذوو طبائع وعادات اجتماعية مختلفة، فيشكل هذا الموسم فرصة للتلاقح الاجتماعي والتعرف على أنماط اجتماعية جديدة.

- **البعد الاقتصادي:** ويتجلى هذا البعد في المفهوم المادّي لوصف البيت بأنه **مبارك**، والبركة هي ثبوت زيادة وتكثير الخير في الشيء، أي تحل عليه وتحفّه من البركات المادّية والخيرات الدنيوية ما يجعله حرّيا بهذا الوصف، وهذه البركة من أسباب جلب الأمن لأهل البلد، سواء كان أمنا روحيا أو أمنا غذائيا، ولعلّ هذا هو السرّ وراء اقتران وصفي البركة الماديّة والأمن في قوله تعالى: "**وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**" (سورة القصص، الآية 56)، ويمكن التدليل كذلك على هذا البعد الاقتصادي بالآية التي سبقت في شهود المنافع المطلقة بالحج إلى هذا البيت، فمن جملة المنافع ما يتعلق بالمصالح المادّية والاقتصادية للأمّة، فرغم أن أرض مكة قاحلة غير خصبة ولا تؤتي أكلها من النبات أو الزرع مصداقا لقوله تعالى: "**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**" (سورة إبراهيم، الآية 36)، فإن الله تعالى حباها بالخيرات والبركات المادية من المطعومات التي تجلب إليها من كل الجهات، ولا شك أن هذا الجلب تحقق باستجابة دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

- **البعد التاريخي:** ويتجلى في كون المسجد الحرام أقدم مسجد وأول قبلة للناس على مدار التاريخ، يقول الشيخ رشيد رضا: 'وَتَقْرِيرُهُ: أَنَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ الَّذِي نَسْتَقْبِلُهُ فِي صَلَاتِنَا هُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ مَعْبَدًا لِلنَّاسِ، بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - لِأَجْلِ الْعِبَادَةِ خَاصَّةً، ثُمَّ بَنَى الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَهُ بِعِدَّةِ قُرُونٍ، بَنَاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ-، فَصَحَّ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَيَتَوَجَّهُ بِعِبَادَتِهِ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَتَوَجَّهُ إِبْرَاهِيمُ وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ. وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ مِنَ الْآيَةِ الَّذِي قَرَّرَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ، وَهُوَ كَافٍ فِي إِبْطَالِ شُبْهَةِ الْيَهُودِ عَلَى

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الْبَحْثِ فِي هَذِهِ الْأَوَّلِيَّةِ هَلْ هِيَ أَوَّلِيَّةُ الشَّرَفِ أَمْ أَوَّلِيَّةُ الزَّمَانِ أَقُولُ: وَالْمُتَبَادِرُ أَنَّهَا **أَوَّلِيَّةُ الزَّمَانِ** بِالنِّسْبَةِ إِلَى بُيُوتِ الْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي بَنَاهَا الْأَنْبِيَاءُ، فَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعٌ بَنَاهُ الْأَنْبِيَاءُ أَقْدَمَ مِنْهُ فِيمَا يُعْرَفُ مِنْ تَارِيخِهِمْ وَمَا يُؤْثَرُ عَنْهُمْ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلِيَّةَ فِي الشَّرَفِ.

وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْأَوَّلِيَّةَ زَمَانِيَّةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى وَضْعِ الْبُيُوتِ مُطْلَقًا. فَقَالُوا: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَتْهُ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ وَأَنَّ بَيْتَ الْمَقْدِسِ بُنِيَ بَعْدَهُ بِأَرْبَعِينَ عَامًا"[1].

وفي سياق الكلام عن خدمة المسجد لا تزال الآيات الأولى من القرآن الكريم تؤصل لنا هذا الأمر، قال تعالى: "**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**" (سورة آل عمران، الآيتان 34/ 35)، ووجه الاستدلال بالآيتين الكريمتين عمّا ذكرت هو أن حنّة امرأة عمران نذرت ما في بطنها من الحمل أن يكون محرّرا أي أن يكون خالصا حبيسا لخدمة بيت المقدس، فلما رزقت بخلاف ما كانت تتوقع من حيث الجنس القادر على الخدمة وتحمّل الأعباء كان منها من القول ما قصّه القرآن، يقول الإمام البغوي (510ه) في تفسيره: 'أَيْ: جَعَلْتُ الَّذِي فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا نَذْرًا مني لك، وَالنَّذْرُ: مَا يُوجِبُهُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ مُحَرَّراً، أَيْ: عَتِيقًا خَالِصًا لِلَّهِ مُفْرَغًا لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَلِخِدْمَةِ الْكَنِيسَةِ، لَا أَشْغَلُهُ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَكُلُّ مَا أُخْلِصَ فَهُوَ مُحَرَّرٌ، يُقَالُ: حَرَّرْتُ الْعَبْدَ إِذَا أَعْتَقْتُهُ وَخَلَّصْتُهُ مِنَ الرِّقِّ، قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُمَا: كَانَ الْمُحرِرُ إِذَا حُرِّرَ جُعِلَ في الكنيسة يقوم عليها يكنسها ويخدمها ولا يبرح حَتَّى يَبْلُغَ الْحُلُمَ، ثُمَّ يُخَيَّرُ إن أحب أقام فيها وَإِنْ أَحَبَّ ذَهَبَ حَيْثُ شَاءَ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ بَعْدَ التَّخْيِيرِ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ والعلماء إلا من نسله محرّر لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَلَمْ يَكُنْ مُحَرَّرًا إِلَّا الْغِلْمَانُ وَلَا تَصْلُحُ لَهُ الْجَارِيَةُ، لِمَا يُصِيبُهَا مِنَ الْحَيْضِ وَالْأَذَى، فَحَرَّرَتْ أُمُّ مَرْيَمَ مَا فِي بَطْنِهَا...'[2]، ولا شك أن الاستدلال بهذه الآية استدلال خفي غير مباشر، إذ لا يظهر وجه الاستدلال به إلا بعد التأمل والتمعن في قلب

[1] تفسير المنار: محمد رشيد رضا (1354ه)، ج4/ ص6، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1990م.
[2] معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي: أبو محمد الحسين البغوي الشافعي (510ه)، ج1/ ص431، تحقيق: عبد الرزاق مهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420ه.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

القصّة، ثم إنّ الفرق بين الذكر والأنثى واضح في ترجيح أفضلية الذكر في التخصّص لهذه الخدمة، وبالتالي يظهر صفاء نيّة امرأة عمران حيث تفاجأت من جنس نذرها لعلمها أن الذكر هو الذي يصلح لهذه المهمة بامتياز.

وليس الحديث في سياق البناء ضمن آيات القرآن أمرا مقصورا على المسجد الحرام، بل تخبرنا سورة التوبة عن نفس السياق مع مسجد قباء[1]، فتؤصل لأهمية تأسيس بنيان بيت الله على أسس التقوى وإبعاده عن كل شر ودسيسة ونفاق، قال تعالى: "**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**" (سورة التوبة، الآيتان 108/107)، وقد وردت الآيتان في سياق المقارنة بين مسجد الضرار الذي أنشئ لإيقاع الضرر بالمسلمين ومسجد قباء الذي أنشئ لإرساء دعائم الرسالة النبوية وبناء الأمّة الإسلامية.

وذكر ابن الأثير أن الشموس بنت أبي عامر بايعت النبي صلى الله عليه وسلم وحضرت معه حين أسّس مسجد قباء فتقول: ((**فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يهصره الحجر، وأنظر إلى بياض التراب على بطنه حتى أسسه**))[2]، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد اقتفى خطا أبيه إبراهيم عليه السلام في حمله الحجر بنفسه ومشاركته مشاركة مباشرة في عملية البناء والتشييد.

ولا بد للتأسيس باعتباره بناء ماديا من باعث أو نية تسبق الشروع فيه، حيث إذا كان الأساس مبنيا على نية باطلة فإن التأسيس سيكون كذلك باطلا، فما بني على باطل فهو باطل أيضا، إذن فالنية الطيبة لها أثر في مباركة العمل وجودته، يقول الشيخ رشيد رضا: 'التَّأْسِيسُ: **وَضْعُ الْأَسَاسِ الْأَوَّلِ** لِلْبِنَاءِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ وَيُرْفَعُ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ هُنَا **الْقَصْدُ وَالْغَرَضُ** مِنَ الْبِنَاءِ'[3].

[1] هناك خلاف بين المفسرين في تحديد المسجد المراد من الآية، فهناك من قال إن المقصود هو مسجد قباء بناء على ظاهر الآية، وهناك من ذهب إلى أنه المسجد النبوي، وقد بسطت القول في هذه القضية ضمن رسالة الماستر التي أشرت إليها آنفا، ورجحت ما بدا لي من خلال القرائن التي حصلت من المادة العلمية المتوفرة.

[2] أسد الغابة في معرفة الصحابة: أبو الحسن ابن الأثير الشيباني (630هـ)، حرف الشين، الشموس بنت النعمان، ج6/ ص166، دار الفكر، بيروت، 1409هـ/ 1989م.

[3] تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ج11/ ص34.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

2. السياق التنزيهي:

وهو ما يتعلق بالآيات التي تحفظ حرمة مؤسسة المسجد وما ينبغي أن تنزه عنه ويجتنب فعله فيها مما يحفظ لها قدسيتها ومهابتها.

ويمكن الحديث في هذا السياق عمّا ينبغي أن تنزه عنه المساجد من بدع عقدية وبدع سلوكية فعلية لتبقى المساجد رسالية تسعى إلى تحقيق مقصدية التوحيد للخالق سبحانه، بالإضافة إلى تحقيق مقصدية تزكية النفوس وتربيتها على القيم الفاضلة التي تحفظ الكرامة الإنسانية.

فجاء القرآن الكريم يدعو إلى تنزيه المساجد عن شهوات النفس الدنّية ومباشرة النساء فيها، لقوله تعالى: "أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"(سورة البقرة، الآية 186)، بل ذهب بعض الفقهاء خاصة من أصحاب المذهب الحنفي إلى تحريم هذه المباشرة ولو كانت على السطح المنفصل للمسجد صيانة له، لقول الإمام فخر الدين الزيلعي الحنفي: 'فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ سَطْحَ الْمَسْجِدِ مِنْ الْمسجدِ يَحْرُمُ مُباشرةُ النِّساءِ فِيهِ لِقَوْلِهِ تَعَالى {وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ}'[1]،وهذا يدخل ضمن الحماية المسجدية السلوكية للأفراد وضمنه أيضا قوله تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"(سورة الأعراف، الآية 30)، والأمر بالشيء نهي عن ضدّه كما تقول القاعدة الأصولية، فإن الله تعالى لما أمر بأخذ الزينة عند المساجد فُهم من ذلك نهيه عما يضاد هذه الزينة من سوء ملبس أو سوء انبعاث رائحة، والزينة في اللباس تنقسم إلى قسمين: زينة مادّية وهي ما يتبادر من ظاهر مدلول اللفظ، وزينة معنوية وهي التقوى لقوله تعالى في السورة نفسها : " يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ

[1] تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبِيّ: فخر الدين الزيلعي (743ه)، ج1/ ص168، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، القاهرة، مصر، ط1، 1313ه.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ"(سورة الأعراف: الآية 25)، ومن الحماية السلوكية لمؤسسة المسجد ما ورد في قوله تعالى: "وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ" (سورة البقرة، الآية 191) مع أن هناك تداخلا موضوعيا في الآية بين الحماية العقدية والحماية السلوكية للمسجد، لكن الاستدلال في الآية على المنع يجعلها أقرب للحماية السلوكية.

أما الحماية العقدية للمؤسسة المسجدية فيتجلى ذلك في قوله تعالى: " وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا"(سورة الكهف، الآية 20)، وهذه الآية -وإن كانت ضمن الأصل التشريعي الموسوم بشرع من قبلنا-تصف حالة الشرك والغلو في الصالحين الذي حصل لهؤلاء، مع أنها تذم ولا يستفاد من ظاهرها مدح نهائيا، حيث ورد في تفسيرها ما نصه ناصر السعدي (1376ه): 'ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى'[1]، ويقول عزّ وجلّ في نفس السياق: "وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا"(سورة الجن، الآية 18)، حيث إن هذه الآية تبعث العباد على النظر في نياتهم نحو المسجد وتصحيحها وذلك ليثبت لهم أجر العمل والعبادة فيه.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا السياق الثاني المتعلق بالحدود سياق ينبني على السياق الذي قبله، ويدل على ذلك ترتيب الآيات حسب السور، فالآيات الأولى من القرآن الكريم تدور حول البناء والتأسيس والخدمة، بينما تنتقل آيات الأعراف وما بعدها للحديث عما ينبغي فعله وما ينبغي اجتنابه في هذه المساجد التي بنيت وخدمت، وذلك من أجل الحفاظ عليها وصيانتها عما لم تنشأ من أجله، لذلك فالنسق القرآني في حديثه عن المساجد نسق منطقي منتظم يؤسس نظرة متكاملة حول موقع هذه المؤسسة في الدين.

[1] تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان: عبد الرحمان بن ناصر السعدي (1376ه)، ج1/ ص473، تحقيق: عبد الرحمان بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1420ه/ 2000م.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

وأرى أن معالجة القرآن الكريم لقضايا هذا السياق المسجدي تشبه في مقاربتها لمعالجة القرآن الكريم لقضايا الصلاة وما يتعلق بها من حدود وأحكام، فهي معالجة تتسم بظاهرة الإجمال دونما غوص في الجزئيات والتدقيقات، وترك المجال للسنة النبوية للتفصيل أكثر وتوضيح ما ورد مبهما أو مسكوتا عنه في آي القرآن، وعليه فإننا نجد الأحاديث النبوية حافلة بالحديث عن آداب وأحكام هذه المساجد، على غرار تفصيلها وتوضيحها لقضايا الصلاة التي أجملها القرآن الكريم.

3. السياق المنزلي:

وأقصد بهذا الاصطلاح في التسمية بيان السياق الذي يتمحور حول رفعة المساجد وعلو شأنها ومنزلتها نظرا لما يتعلق به من شرف الفعل وشرف النسبة، إذ يقول تعالى: "فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ" (سورة النور، الآيتان 36/ 37)، ولا شك أن هاتين الآتين تضمنتا أمرين اثنين:

-أولا: بيان سمو وعلو منزلة المساجد فوق جميع المباني والبيوت المنشأة على الأرض، مع الإشارة إلى السبب المباشر الذي جعلها تحظى بهذه المنزلة الرفيعة، ألا وهو الذكر الذي يملأ أرجاءها طيلة اليوم من غدوّه إلى منتهاه.

-ثانيا: الثناء على أهلها بصفة الرجولية، في أكمل صفاتها، وذلك لكونهم آثروا ذكر الله على شهوات الدنيا خوفا من سوء الحساب الذي قد ينتج عن قلب هذا الميزان من التقديم، وبالتالي فالآية وضعت معيار على الحكم على الشخص بصفة الرجولة الحقيقية، وأن ليس كل ذكر يصلح أن يوصف بصفة الرجل.

وفي نفس السياق نجد آية كريمة تؤكد لنا امتداح هؤلاء الرجال الذين يعمّرون المسجد عمارة حقيقية، قال عزّ وجلّ: "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ " (سورة التوبة، الآية 18)، وليس ثمت فرق في الصفات الممتدحة بين الآيتين، إلا أن هناك إشارة بين تأصيل الإيمان والمعتقد في النفس وأثر ذلك في تقوية الجانب التعبدي للشخص وتمتين صلته بالمساجد كمظهر تعبدي يترجم عن حقيقة ما وقر من معتقد في قلب العبد، يقول سيد قطب رحمه الله: ' إن العبادة تعبير عن العقيدة، فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة، وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست بشيء ما لم تعمر

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

القلوب بالاعتقاد الإيماني الصحيح وبالعمل الواقعي الصريح وبالتجرد لله في العمل والعبادة على السواء..."[1].

ويعتبر سياق بيان رفعة وسمو المساجد لصيقا بتزكية أهلها وبيان سمو منزلتهم كذلك، لأنهم أعمدة المساجد المعنوية وعمّاره الحقيقيون، فالأمران وجهان لعملة واحدة، ولذلك يسير القرآن الكريم في هذين الاتجاهين معا، حيث أمر في سياق جزئي - يمكن إدراجه تحت عنوان هذا السياق الكلي الذي نحن بصدد تجليته-بالعدل والاستقامة عند المسجد، فقال عزّ من قائل: "قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ" (سورة الأعراف، الآية 28).

4. السياق الأمني:

يقول عزّ وجلّ: "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"(الآيتان 125/124: سورة البقرة)، فهذه الآيات ترتبط مباشرة بمطلب الأمن، رغم أن الأمن خاص فيها بمسجد خاصّ بعينه، وهو البيت الحرام، وما أجمل اقترانه به كذلك في أواخر القرآن الكريم في معرض امتنان الباري جلّ وعلا على أهل الحرم بنعمة الأمن، إذ يقول في سورة قريش: "لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" (الآيات 4/1)، واقتران الأمن بذكر المسجد الحرام بلفظ (البيت) -والذي يشمل معان اجتماعية قوية-يدلّ على أن الأمن مطلب اجتماعي ملحّ وهامّ لا يستغنى عنه في تسيير مصالح الحياة، كما أن سبيل تحصيله والحفاظ على وجوده هو القيام بواجب العبودية والاستقامة على دين الله تعالى، وليس ثمت دليل يحصر ويقصر توفر الأمن على منطقة الحرم، بل الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما، فحيثما وطَّن الناس أنفسهم بالعبادة ولزوم الجادّة لله تعالى، فقد ضمنوا لأنفسهم ظروف وأجواء الأمن والتمتع به في كل صوره، ودليل هذا الحكم

[1] في ظلال القرآن: سيد قطب، ج3/ ص1614، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط10، 1402ه/ 1982م.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

إطلاق قوله تعالى: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"(سورة النور، الآية 55)، وبالتالي فسبيل الحفاظ على نعمة الأمن وعدم تعريضها للزوال هو الثبات على منهج التقرب والتذلل لله عزّ وجلّ.

أمّا عن البشارة المتعلقة بالبيت الحرام فهي بشارة دخوله في فتح مكة وأداء العمرة فيه خلال العام الثامن الهجري بعدما منعوا في واقعة الحديبية وتم الصلح على إثرها، يقول الباري جلّ وعلا: "لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا"(سورة الفتح، الآية26).

ولا شك أن هذه البشارة تعتبر مؤشرا إيجابيا على استقرار الوضع بمكة واستتباب الأمن في أرجائها، حيث تم الرجوع بأمان وسلام إلى الموطن الأصلي الذي كان في السابق بؤرة حرب وقتال بسبب اختلاف العقيدة بين أهل الأرض، فالبشارة إذن ثمرة ونتاج للأمن الاجتماعي الذي أغدقه الله على الفئة المؤمنة، والتي جاهدت في ذلك المكان من أجل إعلاء كلمته إحقاقا للحق وإبطالا للباطل.

5. السياق الشعائري:

وهو السياق الذي تتمحور آياته حول بيان ما يتعلق بمناسك وشعائر الحج في علاقة مع المسجد.

ونجد أن آيات الحج تتوزع بين سورتي البقرة والحج، إلا أن هناك فروقا في سوق الآيات ضمن كل سورة على حدة، فحينما يأتي الحديث عن الحج في عمومه فإن القرآن الكريم يستعمل لفظ (البيت) كما في قوله تعالى: "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ" (سورة البقرة،الآية 158)، ولما كان لفظ البيت وعاء ذا حمولة دلالية اجتماعية[1] فإن التعبير به هنا للفت الانتباه إلى الغايات الاجتماعية العظيمة المتوخاة من فريضة الحج،

[1] اشتغلت في المبحث الثاني من رسالة الماستر التي أنجزتها في البعد التواصلي للمسجد حول إثبات الدلالات الاجتماعية لمفهوم البيت من خلال استقراء آثار لغوية وتفسيرية في ذلك، فكانت من أهم النتائج التي خلصت إليها من خلال تتبع هذه الآثار أن هذا المفهوم له ارتباطات قوية بالبعد الاجتماعي، وبالتالي فتوظيفه بالضبط للتعبير عن المسجد فيه إشارة إلى استحضار هذا البعد في السياق المعني.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

والمتأمل في آيات سورة الحج يدرك بعمق هذا السر في الاختيار، حيث إن سورة بأكملها سميت بموضوعها الرئيس ألا وهو فريضة الحج إلى المسجد الحرام، جاء في كتاب المساجد في المدن العربية للمعهد العربي لإنماء المدن: 'حديث القرآن عن المسجد الحرام تكرر أكثر من خمس عشرة مرّة تحدثت سورة الحج عن المسجد الحرام ومكانته وبنائه وعن وجوب الحج إليه وعن المنافع التي تعود على الحجاج من وراء فريضة أدائه، وعن سوء مصير من يحاول الانحراف عن الطريق القويم فيه حتى ولو كان هذا الانحراف عن طريق النية السيئة فحسب، سواء كان صاحب هذه النية السيئة في مكة أو في غيرها'[1]، إلا أن ورود لفظ البيت والتعبير به عن قبلة الحج أكثر من التعبير بلفظ (المسجد الحرام)، فرغم حديث السورة عن المناسك والشعائر ونحر البدن فإنه ضمن نفس السياق ورد ذكر البيت والبيت العتيق أربع مرات، ولم يذكر المسجد الحرام إلا مرة واحدة، وذلك حينما تحدث عن العاكف والبادي فيه لقوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" (سورة الحج، الآية24)، وتعتبر غلبة توظيف لفظ البيت في السياق القرآني للحج دليلا على الخير الاجتماعي ومنافعه الجمّة التي ينالها أهل المكان من خلال أدائهم لهذه الشعائر، من تآلف وتراحم وتواصل وتواصي على الخير وتلاقح فكري وانسجام روحي، ويظهر هذا الأمر الحسي جليا عند رجوعهم من الحج فما إن نلتقي أحدهم حتى يطفق متحدثا عن الأجواء الاجتماعية التي سادت رحلته تلك إلى البقعة الطاهرة، مما يدل على أثرها الكبير في النفس.

أما التعبير بلفظ المسجد الحرام في سورة البقرة فهو يشمل في غالبه موضع المناسك والعبادات والأحكام والكفارات في المواطن التي تؤكد وجوب مراعاة حرمة ذلك، كما في قوله عزّ وجلّ: "وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

[1] المساجد في المدن العربية: ص37.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

الْعِقَابِ" (سورة البقرة، الآية 195)، وقد ذهب أهل التفسير إلى أن المقصود بحضور المسجد الحرام في الآية هو أن يكون مقر السكن بمكة، لكن الأمر الأساس في الآية هو أن ذكر المسجد الحرام في هذا الموضع ليس من قبيل العبث، بل له مناسبته الوجيهة، وذلك للارتباط القوي بمناسك الحج أو العمرة بهذا المكان، خاصة في الطواف بالكعبة، وقد يكون ذكره في هذا الموطن إعادة للتذكير بحرمته حتى يعظم في أحكام الهدي وما يرتبط بذلك من تعظيم لشعائر الله تعالى.

6. السياق التوجّهي:

وأعني بهذا الاصطلاح في التسمية مجموع الآيات التي تعالج موضوع القبلة التي يتوجه إليها المسلم خلال أداء الصلوات.

ولما كانت طبيعة هذا السياق طبيعة تعبدية محضة-رغم ما تشتمل عليه من مقصد توحيد وجهة المسلمين-؛ فإن السياق ورد فيه دائما لفظ المسجد الحرام، نظرا للارتباط المتين بين السجود باعتباره أجلّ أنواع العبادة وبين قبلة التوجه بهذه العبادة، ولم يرد في هذا السياق بتاتا تعبير عن المسجد الحرام بلفظ البيت، نظرا لكون مفهوم البيت له من قوة الدلالة الاجتماعية ما يبعده عن مناسبة هذا السياق-والله تعالى أعلم-، يقول تعالى: "قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ" (سورة البقرة، الآية 144)، ويتأكد هذا النظر الذي توصلت إليه في الآيتين اللتين تتحدثا حول القبلة بعد الآية السابقة وهي قوله تعالى: "وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (الآيتان 148/ 149)، وهذه القبلة هي قديمة قدم الرسالات السماوية السابقة، وليست خصّيصة لهذا الدين، وبالتالي فإن للقبلة جذورا تاريخية عميقة، ويؤيد ذلك وصفه تعالى للمكان بالبيت العتيق في سورة الحج ضمن سياق الطواف بالكعبة، يقول الدكتور عبد الله باسلامة مبينا جملة من البراهين على بيان تاريخ القبلة وقدم مكة: 'تكليف الصلاة كان لازما عند جميع الأنبياء بدليل قوله تعالى في سورة مريم: "أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا" (سورة مريم، الآية 57) فدلّت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله، والسجدة لا بد لها من قبلة، فلو كانت قبلة شيث وإدريس ونوح عليهم السلام موضعا آخر سوى القبلة، لبطل قوله تعالى: "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكّة"(سبق تخريجها) فوجب أن يقال: إنّ قبلة أولئك الأنبياء المتقدمين هي الكعبة ... والدليل الثاني أن الله تعالى سمّى مكّة أم القرى، وظاهر هذا يقتضي أنها كانت سابقة على سائر البقاع في الفضل والشرف، والدليل الثالث روي عَنْ مُجَاهِدٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ الْفَتْحِ: ((إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا، وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ)) فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ العنصر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِلَّا الْإِذْخِرَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ، إِنَّهُ لِلْقَيْنِ وَالْبُيُوتِ قَالَ: فَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: إِلَّا الْإِذْخِرَ لِلْقَيْنِ فَإِنَّهُ حَلَالٌ))[1]،وتحريمه مكة لا يمكن إلا بعد وجود مكة"[2]، وفي تسمية مكة كذلك بأم القرى وجود دلالة قصدية أخرى، فالأُمُّ يدل على القصد، أي أنها كانت وجهة ومقصدا ومحجا بالنسبة للقبائل والقرى الأخرى.

خاتمة:

نخلص من خلال دراسة سياقات القرآن الكريم المتعلقة بمفهوم المسجد إلى ما مجموعة من النتائج والتوصيات، يمكن إجمالها فيما يلي:

-تنوع الأبعاد الوظيفية التي تؤطر السياق المكاني للقرآن الكريم؛ سيما الحديث عن المسجد الحرام باعتباره قبلة، وباعتباره محط جاذبية منذ عهد الرسالة.

-أهمية المصادر التاريخية والتفسيرية في تجلية الأبعاد المؤطرة للسياق المكاني على وجه الخصوص؛ وباقي السياقات عامة.

[1] أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه: أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهاني (272هـ)، باب ذكر أين يقف من المروة، رقم:1418، ج2/ ص233، تحقيق: عبد الملك عبد الله دهيش،دار خضر، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ.

[2] تاريخ الكعبة المعظمة (عمارتها وكسوتها وسدانتها): حسين باسلامة، ص65 بتصرف يسير.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

-الحضور القوي للسياق الاجتماعي والأمني دليل واضح ومؤشر بارز على مركزية هذه المؤسسة في حفظ هذا القصد، والتعويل عليها في كل إصلاح يمس على المجال بقوة.

-الإحاطة بالسياقات القرآنية للمسجد في القرآن الكريم خكوة أساس في تجديد النظرة المفهومية والوظيفية لهذه المؤسسة، بل لتقويم الخلل الحاصر في عمها وسيرها ونشاطها.

-ارتباط النشاط الروحي للمسجد بالسياق التوجهي اللصيق هو الآخر بمسجد آخر يدل على أن المساجد ينبغي أن تشتغل وفق منظومة وظيفية محددة تلبي في ذلك حاجات الفرد وحاجات الجماعة على حد السواء والتكافؤ.

-مقصدية السياق التنزيهي للقرآن الكريم تتجلى في ازدواجية حفظ المؤسسة وتنشئة أهلها تنشئة سوية تنعكس على سلوكاتهم خارجها.

-ارتباط السياقين الشعائري والتوجهي للمسجد في عنصري هامين، وهما الأسوة وتجديد الصلة التاريخية بماضي الأمة.

- الحاجة الماسة للبحوث السياقية في المجالات الشرعية من أجل تطوير المعرفة وتحقيق الإضافة النوعية لمجال التخصص.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

2. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه: أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهاني (272ه)، تحقيق: عبد الملك عبد الله دهيش،دار خضر، بيروت، لبنان، ط2، 1414ه.

3. أسد الغابة في معرفة الصحابة: أبو الحسن ابن الأثير الشيباني (630ه)، دار الفكر، بيروت، 1409ه/ 1989م.

4. تاريخ الكعبة المعظمة (عمارتها وكسوتها وسدانتها): حسين باسلامة، مكتبة الملك فهد، الرياض، السعودية، ط2، 1419ه/ 1999م.

5. تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبِيّ: فخر الدين الزيلعي (743ه)، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، القاهرة، مصر، ط1، 1313ه.

6. تفسير المنار: محمد رشيد رضا (1354ه)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1990م.

7. تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان: عبد الرحمان بن ناصر السعدي (1376ه)، تحقيق: عبد الرحمان بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1420ه/ 2000م.

8. عمارة المساجد-دراسة في تاريخ عمارة المساجد خلال العهود الإسلامية-: رؤوف الأنصاري، دار النبوغ، بيروت، لبنان، ط1، 1417ه/ 1996م.

9. في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط10، 1402ه/ 1982م.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

10. مؤسسة المسجد (الرسالة الحضارية والوظيفة الاجتماعية): د عبد العالي المعكول، مطبعة أمنية، فاس، المغرب، ط1، 1433هـ/ 2012م.

11. المساجد في المدن العربية: المعهد العربي للإنماء، وزارة الإعلام، 1410هـ/ 1990م.

12. معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي: أبو محمد الحسين البغوي الشافعي (510هـ)، تحقيق: عبد الرزاق مهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ.

13. من بلاغة القرآن: أحمد البدوي (1384هـ)، نهضة مصر، القاهرة، 2005م.